

العزلة...

في شعر

ابن المقرب

د. عبده عبد العزيز قلقيلة

لم يكن ابن المقرب مؤهلاً للاكتثار من الغزل أو للإجادة فيه بحكم ظروفه الخاصة به؛ فهو لم يبلغ مبلغ الرجال حتى سجن وصودرت أمواله، ولما وهب حريته باطلاق سراحه وجد نفسه مشغولاً باسترداد ثرواته، وقد استغف ذلك جهده طول حياته، واضطره الاخفاق في تحقيقه الى كسب قوته عن طريق رحلاته المتعددة الى بغداد وبعض مدن العراق الأخرى حيث الخليفة العباسي وولاته، كما لم يكن مؤهلاً للاكتثار من الغزل أو للإجادة فيه لعكوفه على قضايا مجتمعه وقومه ودولته، وهي قضايا شائكة ومتشابكة فلث قوته وأوهنت صحته وجعلت منه إنساناً مكتئباً لا يعرف المرح إلا قليلاً، ولقد كان صادقاً وهو يخبر عن نفسه متحسراً على حاله بقوله:

لم تبق مني من مساورة الأذى والضمير غير حشاشة وذمءاء

وطبعي ألا تسعفه تلك الحشاشة، وهذه البقية القليلة من روحه وحيوته بالضرب في فباقي الحب، وألا تمكته من أدواته، خصوصاً بعد أن أعلاها بتوظيفها في تحقيق مجده ومجد وطنه، وقد بالغ في ذلك بأن جعله وكده ومحور حياته، يقول في مطلع القصيدة ١١ ص ٧٤:

يبنى فما أنت من جدي ولا لعي مالي بشيء سوى العلياء من أرب

ويقول في مطلع القصيدة ٤٨ ص ٣١٦ :

إليكن عني فأنصرفن على مهل فليست بمزناج فحجر ولا وصل
وماذاك عن بعض لكن ولا قل ولكن قلبي عن هواكن في شغل

ويقول بعد بيت المطلع من القصيدة رقم ٦٧ ص ٤٤٨ :

ظننت لحولي واصفراري من الهوى وذلك مما يقتضيه التسوهم
لعمرك ما لي من هوى غير أنني بغير المعالي يا ابنة القوم مغرم
وقد عرضت من دون ذاك فأعرضت
أمر لها يستهلك اللحم والدم^(١)

وقد بهت هذه الأمور على قلب ابن المقرب بعد أن استهلكت لحمه ودمه،
وأدت إلى تحول واصفراره، فجعلته غير متفتح للحياة وغير متهيج بها، وفي
أحيان كثيرة غير راغب فيها، لكن رفضه للحياة أو زهده فيها لا يعني خروجه
منها ومادام أنه على قيدها فليفلت بها باللون الذي يعجبه ويوائم طبعه، ولم يعجبه
ويوائم طبعه إلا اللون الحماسي، وهو مزيج من العزم الماضي والجهد الصارم،
هاهوذا يقول لصاحبه اللذين لصحاء بالترويح عن نفسه :

عليه من عمرو بن غنم بن تغلب ذرائي قاتل بالعلا جد هام
وما السمر عندي غير عطية الفنا وما بالبيض عندي غير بيض اللهازم
ولا تذكر الصبء ما لم تكن دماً ولا مسمعاً ما لم يكن صوت صارم
قاتل أحب الشرب في ظل قسطل مجالسهم فيه ظهور الصلادم^(٢)

لكن ابن المقرب بعد ذلك كله، وبرغم ذلك كله شاعر، والشاعر رقيق
المشاعر يحب أكثر مما يحكو، ويأثلق أكثر مما ينغلق، ويعيش الحياة كلها

بلا ملود ولا قيود على قلبه ووجدانه، ثم هو قد تمرس بآثار الشعراء السابقين، وكثرتهم الكاثرة قد تدلّت فتزلّت، أو تغزلت بدون تدلّه، ومن تحقيقه لذاته أن يكون مثلهم، وأن يمضي معهم في موكب الغزل بلونيه: الصادق والكاذب، ومن هنا وجدنا له غزلاً في عدد من قصائد ديوانه، جاء مطالع لها ولم يستقل بها إلا في قصيدة واحدة، لعل أبياتها الثلاثة عشر كانت - كأخواتها - مقدمة لقصيدة مدح ثم انفصلت عنها لأسباب نجهلها، يقوي هذا الفهم بل يؤكد أن هذه القصيدة رقم ١٨ ص ١٢٩ مصدرة في الديوان بقول جامعها «وقال أيضاً رحمه الله تعالى» علماً بأنها مصدرة في النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة بلدية الاسكندرية تحت رقم (ن ٢٠٢٨ - ج) بقول جامعها: «وقال أيضاً بمدحه وأجاد». وليس في القصيدة أحد بمدحه الشاعر. كانت هذه الأبيات مقدمة غزلية لقصيدة مدح إذاً، ولو وصلنا شعر ابن المقرب كاملاً لأمكن جمع شملهما.

وتتبع القصائد التي بدأها بالغزل نجد يسلك فيه الطرق الآتية:

١ - لوم العاذل والاجتهاد في تحويله من عاذل الى مساعد، ثم الانتقال الى ذكر محاسن المحبوب وإظهار الاقتان به.

نجد ذلك في القصيدة رقم ٢ ص ١٩، وعدد أبيات الغزل فيها ١٩ بيتاً وفي القصيدة رقم ١٤ ص ١٠٠، وعدد أبيات الغزل فيها ١٣ بيتاً وفي القصيدة رقم ٤٤ ص ٢٨٣، وعدد أبيات الغزل فيها ٧ أبيات

ونكتفي في التمثيل لهذا الضرب من الغزل بأبيات منه جاءت في مقدمة القصيدة رقم ٢ وقد استحضر فيها بل عارض بها قصيدة المتنبي التي مطلعها:

عذل العواذل حول قلب التائه وهوى الأحبة منه في سودائه (٣)

والتي منها:

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

قال ابن المقرب :

عذل المشتوق يبيع في برحائه وبشر نار الوجد في حوائه
فاترك ملامته ودعه وشأنه في نوحه وحنينه وبكائه
وإن استطعت على الصباية والأنبي

فأعنه تحفظ بوده وإحصائه
يا عاذل المشتاق مهلاً واتدد في لومه فهو العليم بذاته
ومتى ترد يوماً ملامة عاشق

فاجعل فؤادك تحت ظل حشائه
فإن استقر قلم أذاك وإن نيا فكان النديم الفرد من ندمائه
نفسى القداء لمن غدا ريق له ريقاً ولم أسمع به لسوائه
يا عاذلي لا عشت إلا أحرساً أعمى أصم ترى بقلب نائه
أريت في لومي وزدت ولن ترى

أو أن ترى ما بين سلمى والحمى
فلي مطيعك في انزاع هوائه
بحراً يعوم الطير في أرجائه

والبيت الأخير منظور فيه الى قوله تعالى رداً على دعاء موسى له بقوله :
«رب أرنى أنظر اليك» قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فإن استقر
مكانه فسوف تراني».

٢ - وصف شوقه الى محبوبه وديار محبوبه، وسؤال الغادين والرائحين عن
أحوالهما، ثم وصف جمال المحبوب وإجراء حوار معه.

لجد ذلك في القصيدة رقم ٤ ص ٢٦ وعدد أبيات الغزل فيها ١٦ بيتاً.
وفي القصيدة رقم ١٧ ص ١٢٠ ، وعدد أبيات الغزل فيها ١٦ بيتاً.

ومن هذه القصيدة رقم ١٧ هذه الأبيات :

أرئها المآقي ما تكن الجوائح فيح ؛ فالعنى بالصباية بائع
فكم تسر الشوق الذي يحامر الحشا
ودمع المآقي للمحبين فاضح
وقائلة شبه الملام وراعها بياض مشيب جلته المسائح
أبعد اشتعال الرأس شيئا تعرض
لوصل الحسان البيض أم أنت مازح
فقلت: أليس الصبح أحسن منظراً
وأبهى من الظلماء والليل جاع
فمالت لجزل القول ثم تضاحكت
وقالت: هذا فلتضحك النوائح
إذا كان شيب الرأس مما يزينه
فيحسن ثغر سودته القوادح (١)

٣ - صدود الحبيب تها بجماله وإدلالاً بشبابه، وغلبا ما يكون ذلك مع
عجب أشيب فقير، حضوره أقل من غيابه.

وفي المقابل نجد العجب جاقيا قاسيا يقابل الصدود بالصدود، وهو يسلك
هذا المسلك الحسن إما تكبراً، وإما استقباء ماء وجهه.

نجد هذا المعنى في القصيدة رقم ١٢ ص ٨٤ وأبيات الغزل فيها ١٣ بيتاً.
وفي القصيدة رقم ٨٨ ص ٥٨٦ وأبيات الغزل فيها ثمانية أبيات.
وفي كل من القصيدتين غزل بامرأتين، فقد تغزل في القصيدة الأولى بزئب
قال :

صدت. فجئت. حيل وصلك زئب
تيا وأعجبا الشلب المعجب
لا تعجب يا قلب من هجرانها فوصالها لو دام منه أعجب
أغرى المليحة بالصدود ثلاثة تأتي وإقلال ورأس أشيب

فأضرب عن استعابها صفحا فما
ذو الشهب والأفلام ممن يعتب
واسبق ماء الوجه فيه ولكن به
حجياً ولا ثقل القلوب تغسل

ثم انتقل الى من تغزل فيها بقوله:

وكرمة الطرفين ذروة والى آباؤها وجدودها إذ نسب
شاطرتها شرح الشباب ومائه يجري وجدوة ناره تلهب

وتغزل في القصيدة الثانية بنعم قال:

ألا رحلت نعم وأفقر نعمان فبح باسمها إن عرَّ صبر وسلوان

كما تغزل بمن صدته وتاهت عليه قال:

ومبدية تبها عليّ وقد رأيت يابضا برأسي قد بنا منه نهاناً (*)
فقلت لها : لا يا ابنة القوم إتنى
أعر إذا ذلت كهول وشبان

٤ - ذكر بين الحبيب ووصف الأحاسيس التي تنجم عنه مع الاشارة
بجمال المصوب جملة وتفصيلا.

نجد ذلك في القصيدة رقم ١٨ ص ١٢٩ ، وهي القصيدة التي ذهبنا إلى أنها
كانت مقدمة للقصيدة مدح ، لكن المدح انفصل عنها ولم يصلنا.

ونجد في القصيدة رقم ٩٢ ص ٦١٨ وعدد أبيات الغزل فيها ١٣ بيتا
كسابقتها ، وهذه أبيات من القصيدة الأولى قال :

لغداً نغتدي اللين أو نتروح وعند النوى يبدو الغرام المرح

غداً تفقر الأطلال من نوده وبمسي غراب الين فيها وبصبح
 خليلي هباً من كرى النوح وانظروا
 محائل هذا البرق من حيث يلوح
 لقد كنت مما كاد أن يستفزني
 أبوح بسري في الهوى وأصرح
 ذكرت به نعر الحبيب وحسته إذا ما لعل ضاحكا وهو يرح
 وبها حبلا ذاك الحبيب الذي غدا
 يلوح عليه الزعفران الملوح (٦)

٥ - غزل صادق أو أقرب الى أن يكون صادقا لما يترق في من عاطفة
 جياشة، ولما يمتاز به من عزوبة وسبولة، وأخيراً لما يشتمل عليه من وقائع
 محددة الزمان والمكان.

وابن المقرب هنا يكشف عن مطلوبة من حبيبه في مقدمة القصيدة رقم
 ٢٣ ص ١٦٠ وعدد أبيات الغزل فيها ١٦ بيتاً، وعن تحقق هذا المطلوب في
 مقدمة القصيدة رقم ٨٧ ص ٥٨٠، وعدد أبيات الغزل فيها ٢٢ بيتاً والمقدمتان
 تشتركان في أن كل واحدة منهما تصلح أن تكون قصيدة غزل قائمة بنفسها.

ونكتفي في التمثيل لهذا النوع من الغزل بأبيات من مقدمة القصيدة الثانية
 قال:

من ذا أفتاك بسفك دمي	يا غرة حي بني جثم
فتعالي غير مدافعة	تقصص رؤيتك على حكم
أبتظرة عين عن عطاء	عرضت بالعمد يراق دمي
إن كان جنى طرفي فلقد	يكفيه مقالك: لا تم
فلزى الواشين فقد نطقوا	زوراً وهم شر الأمم
يا طبيب الوصل ودار الحى	بحيث الأبطح ذو الحرم
والدهر بعينه سدر	عن شمل الحى المثلثم
وأزور الحب علاتية	وبزور جناني عن أم
وأعولله ويعوللني	من ذي أشر عذب شم (٧)

والمال يمد رواق السبيل سر على المثنى من التهم
فترى الرقباء طلائعاً وشهود العفة والكفر

٦ - الوقوف بالأطلال، ووصف مشاعر الشاعر عندها، وذكر ما كان
بينه وبين صاحبها فيها من نحوى.

لجد ذلك في القصيدة رقم ٤٧ ص ٣٠٥، وعدد أبيات الغزل فيها ١٧ بيتاً
وفي القصيدة رقم ٩٠ ص ٦٠١، وعدد أبيات الغزل فيها ١١ بيتاً.
وهذه أبيات من القصيدة الأولى وهي تذكرنا بمعلقة زهير بن أبي سلمى:

أمن دمنة بين اللوى فالذكادك
شغفت بتلراف الدعوى السوافك
ويؤدى كجذم الحوض غير رصه
وجيف الحصا بالموجفات الحواشك
كأن قوادك ناطه ذو سخيمة
قليل التحني في صدور النيازك
غداة تداعي الحى بالين بعد ما
جلا الصبح أعجاز النجوم النواك
وفي الجيبة الغادين لا عن ملالة
ظباء على تلك الهجان البواك
لمحاص الحشاحم الشفاء كأنما
يلثن مروط العصب فوق العواك
ويسمن عن ثور الأفاحي لم يزل
يُعذى بدرات الذهب الركاك
وفيهن من ذهل بن شيان عادة
يُطَيَّب رهاها عبر المداك
كأن على فيها سلافة قرقف
وقد غورت أم النجوم الشواك
أقول لها سرّاً وقد غاب كاشح
رقب مقال العاشق المتهاك
لئك الخير ما هذا الجفاء وهذه
دياري وأهل زلفة من دهاك
أترضين قتلي لا بسلة صارم
من البيض إلا سلة من لحاظك
فوالله ما أدري أعراض بغضة
لنا أو دلال فافصحى عن مقالك (٨)

٧ - غزل في طيف الحبيب الذي تراءى له وهو يعبر القنات، مضطرباً
وجلاً، فسرى عنه وسره، ولما انكشفت غمته زائله، فمضى في أثره يودعه ولم

يطمئن حتى يبلغه مأمنه، وعند قفوله راجعا تبين له أن الذي كان فيه ما هو
إلا حلم من أحلام اليقظة قال:

سما لك من أم العبيد خيال ودون لقاء أجرج وسيل
سما ومطابانا كأن اقتحامها غوارب أمواج الفرات، فيال
فأهدى سرورا عازبا كان قد مضى

وأنسته أهدى مرير طوال
وعاد قلم يلبث فواقا كأنما عليه يتعجيل الرجوع كفال
فشابغته أفضى الذمعام لأنني لذلك أب في الحالتين ونحال
إلى أن بلغنا الجسر والترعة التي
بأكتافها الحلي الكرام جلال

وحانت لعيني يقظة بأن عندها
بأن الذي قد كنت فيه محال
فوها لها تهيمه بعثت جوى
حُرمت له اللذات وهي حلال (٩)

غزائل الصدق واضحة في هذا الغزل، ونرجح لهذا أن أم العيد هي زوجته
التي كتبتها ولم يصرح باسمها؛ صونا لها، تذكرها وهو يعبر الفرات. في ظروف
صعبة، والإنسان يذكر أهله أكثر ما يذكرهم في الظروف الصعبة. ثم هو يأسي
على اللذات الحلال التي حرمها منها.

٨ - غزل في صورة شوق أثاره في الشاعر صوت الحمام غناء في القصيدة
رقم ٢٣ ص ٢١٤، والغزل فيها أحد عشر بيتا، ونوحاً في القصيدة رقم ٨٢
ص ٥٦٢ والغزل فيها خمسة عشر بيتا قال:

رويدا بعض نوحك يا حمام أجذك لا تيم ولا تسام
أكل الدهر تذكراً ونوحاً أما فنى اشتياقك والفرام
هتفت فهجت لي شوقاً فقل لي
حمام أنت ونحك أم حمام
ورفقا إن جارك من غرام ومن قلق ليؤله الكلام
أتذكر هالكاً من عهد نوح مضى والدهر حيثذ غلام

وأنسى خلتي والعهد مني قريب لم يمر عليه عام
شقيت ولا شقيت بفقد ألف

فنعيم العهد عهدك والذمالم
ولكني أراك ضنين عين وعيني مأزها أبدا سجام

وتنقل شوقه به بين كثير من الأماكن في البحرين فيدعو لها ويسأكنها قال :

رعى الله الثليم وسأكنه	وأجرعاً تكنفها السلام
وجاد من الجديد الى المصلى	الى الحصنين وكاف ركام
فمسرحة للثني ومراح لقوى	هنا لكم وجيرتي الكرام
وملعب كل غانية كعساب	مخدمة يزين بها الخدام
يرأها القابس العجلان لحاً	فيبقى لا وراء ولا أمام
وترسل من لواظها سهاما	فتعطي حيث لا تمنى السهام (١٠)

ويختتم مقدمته الغزلية بتحسره المبالغ فيه على زمنه الذي تفلت من بين يديه
قال :

مضى ذاك الزمان فليت أليى صدى من قبل تمضاه وهام

٩ - وصفه للخمر ، وصولاً بها الى ذكر محاسن المرأة في القصيدة ٨٤
ص ٥٧١ ، وعدد الأبيات تسعة أبيات ، ومطلعها :

قم فاسقنيها قبل صوت الحمام كريمة تجمع شمل الكرام
صهبا مما عثقت بابل مزاجها الأزرى وماء الغمام

١٠ - الجهر بالحب، والتبكت فيه، مع شرب الخمر ووصفها، ساقيتها أو ساقيا دون مبالاة باللحاة، ومع تذكره لأيام طوه ولياليه متحسرا عليها ومتعنيا عودها، جاء ذلك في مقدمة القصيدة رقم ٩٦ ص ٦٤٩، ومن عجب أنها في مدح النقيب تاج الدين إسماعيل وهو علوي من رجال الدين المرموقين، ولا يليق به أن يكون هذا مدخل مدحه قال :

تخفي الصباية والألحاظ تبديها ونظهر الزهد بين الناس تمويهها
وتستر الحب كيما لا يقال: صبا شيخا فتعلته الأنفاس تنويهها
يا عاشقا تلتفت في العشق مهجته كتمانك الحب في الأحشاء يؤذيها
واضرب عن التيه صفحا والغ صحتيه

ما أحرق العاشق المستصحب التيه من كف خروجة خوِّ مراشفها
بيض سواقها سود مآقيها أو فاطر الطرف معسول الرضاب له

دل ينبه وسنى الياء تنبيهها فإن لحوك فقل كل له شجن
ووجهة هو عم قصد مولها ولا تلتفت الى قول يزيد ضنى
لا تحرق النار إلا رجل واطها ليس الحلي يبك للشجى أسى
ولا يحس الحميا غير حاسيا يا منزل الحمي بالجرعات لا برحت
نحني بك المزن نهلا عزاليها كم لي بمغفناك من يوم نعمت به
وليلة تعدل الدنيا وما فيها واهأ ها من ليل لو تعود كما
كانت وأي ليل عاد ماضيا (١٢)

أما بعد : فلم تكن الطرق السابقة هي كل ما سلكه ابن المقرب في غزله، وإن كانت أرحبها وأخصبها، وقد رأينا كيف استحال الغزل عنده الى وصف الخمر ومجالسها وطلبها والحث على شربها، ولعل ذلك مما أقدره على الجهر بحبه، أو على تذكر هذا الحب، بعد أن خرج على طوره، إما بشيخوخته، وإما بانشغاله بما كان من مقارعة الخطوب له.

● الهوامش ●

- (١) الخمر [خاء مفتوحة وراء مكسورة] هو الشخص الذي أتاه العشق أو الخزل.
- (٢) عطية النقا: الرياح تنخذ من شجر بالخط، بعض المهازق: القاطع من الأسنان، يريد أنه لا يشغل نفسه بالنسج والبيض من النساء بل يعني بالحرب وأكوابها، القسطل: الخمار، ويرمز الشاعر به إلى الحرب لأنها تنجب. الصلالم: الشدة الحار وهو القوى من الخزل.
- (٣) ديوان المتنبي بشرح العكوي ج ١ ص ١ - الطبعة الثانية - القاهرة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.
- (٤) الشائع: جمع السبعة وهي الدابة، يريد أن شبة عاتلة سواد القوادح: تقول: قدح السوس في الأسنان قدحا وهو تآكل يقطع فيها.
- (٥) بعل الشئ: أوله وشده.
- (٦) فرج الشئ: في الرخ كركه، وفرج الزعفران وغره في الماء لتدبها جعل فيه منه شياً يسوا.
- (٧) السفر: نهر العبر من شدة الحر.
- ثم ذو أثر: في أسنانه تحيز يكون حلقه ومستلحا، ولم شم: بارز الريق.
- (٨) الذكالك: الأرض الغليظة.
- الثوى: الحفر حول الخاء أو الخيسة يمنع السيل الجلم: الأسفل. وحيف الخصا: اضطرابه من مرور الريح. الوضعات الحواشك: الرياح الثقيلة أو الشديدة.
- ناله: غلقه. السخية: الغنية والحقد. النحي: المتطف. البياك: الرياح القصار.
- ذلك النجم: غروب، أو قارب التمسيد.
- ناقة حيان: يضاء، وناقة بالكة: سمية قبة حسنة.
- نحاس الحشا: دقات الحصور. سم الشفاء سوداها. لأن الرط: لغة حول وسطه، والرط: كساء من صوف يؤثر به، فذلك الرمل: لتعد وارتفع فلم يكن فيه طريق، يثب ما تلقن عليه مروطون في تلقفه وتثبه ويمل عاتك.
- الدرة: المزة من الدرر، والدعية: المطرة الضعيفة، أما الزكالك: فهو المطر القليل أو ما فوق الضعيف.
- المذكوك: حبر يمسح عليه الطبيب.
- السلافة: ما سأل من العنب قبل أن يعصر. القرقف: الخمر. ويعني بقوله: «وقد حورت أم الجميع الشوايك» أي شربت الخمر بحاربا المشايك، شبه حاربا بالجميع المشايكة في السواد زلغى من ذكالك: قهوة مباد.
- (٩) القصيدة رقم ٦٥ ص ٤٣٦.
- الخمرار: الرملة الطيبة اللبنة. سبال: جمع سبالة وهي نبات له شوك أبيض طويل، أو الطول من السم.

- القبال : لعبة للصبيان يلعبون الشيء في التراب ثم يمسحونه ويلبسونه : في أيها هو ؟ يريد أنهم وقت اقتحامهم هذه المخاطر كانوا في خطر وفي يد القدر.
- الفواق : ما بين الحلقين ، أو ما بين فتح يد الحالب وقطعها على الطرغ.

(١٠)

- وكلف الطفر : اميل وانصب ، ركام : بعضه فوق بعض.
- الكعاب : التي كعب ثديها ، الخدمة : الشرقة المرفوعة ، الحدام : الحلال.

(١١) الأرى : الفصل.

- الفقام : الجساعة.
- الطباء من الشفاء : القابلة في حمرة ، ومن العيون : الرقعة الجفن ومن الثناث : القليلة الدم.
- الخيام : العطش.

(١٢)

- منبكا : منبكا بالخشب غير سائر له.
- الخرمية : هي الشابة الحسة الحلق الرخصة ، القبة الجسيمة الرقعة العظم : شفة حواء : حمراء الى السواد . السالقة : ناحية مقدم العنق من لادن معلق القوط.
- المزلدة : مصب الماء من القرية.



قال رسول الله ﷺ :

من تطهر في بيته ثم خرج إلى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة
لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة وحط بها خطيئة ، فإذا
دخل المسجد لم يزل في صلاة ما انتظر الصلاة والملائكة
تصلي عليه وتقول : «اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه» .